الملكية وتأثيرها على مشاريع حفظ وتثمين القصور الصحراوية "قصر القنادسة" أنموذجا

Ownership and its impact on projects for preserving and developing saharian Ksours, "KNADSA's Ksour" as a model

قاضي محمد*

جامعة طاهري محمد بشار

مخبر الدراسات الإنسانية والاجتماعية في الجزائر-بشار-

Mohamed.kadi@univ-bechar.dz

الاسم الكامل للباحث الثاني

مؤسسة الانتماء،

مخبر الانتماء

Email

تاريخ الاستلام: 2023/01/02. تاريخ القبول: 2023/05/10 النشر:2023/05/31

ملخص:

تعد القصور الصحراوية ظاهرة معمارية متميزة في تصاميمها وتخطيط فضاءاتها، إذ هي نتاج ظاهرة الفعل وردة الفعل مع محيط قاسي بمناخه، تفوقت الساكنة المحلية في تهذيبه وجعل القصر الصحراوي متميّزا ، ولتوضيح خصوصيات ومميزات القصور الصحراوية اخترنا قصر القنادسة كمصدر أثري مهم، يكتنز بين جدرانه معلومات ومعطيات مهمة تجلّت صوره وأشكاله في الشواهد المادية المحفوظة في زوايا القصر، يطل منها الباحث على جوانب من حياة ساكنته المحلية، هذا المعلم برمزيته والقيّم المادية والمعنوية أصبح يعاني في صمت جراء عوامل التلف الناتجة عن الإهمال واللامبالاة والتّخريب العمدي، ولهذا جاءت دراستنا لترصد أسباب تدهور حالة القصر وللإجابة على هذه الإشكالية اعتمدنا على المنهج التاريخي من خلال جمع كل المعطيات التاريخية والجغرافية والتي بتكاملها تعطينا صورة واضحة عن مراحل تطور قصر القنادسة، أما في الشق التطبيقي فقد استعننا بالمنهج التحليلي لتشريح ظاهرة الملكية مع تحديد أثارها السلبية على سلامة العناصر الإنشائية والزخرفية لقصر القنادسة،

الكلمات المفتاحية: استغلال المواقع الأثرية ؛ حفظ وترميم التراث ؛ قصور صحراوية ؛ قنادسة؛ ملكية مباني أثرية

Abstract The desert Ksour are a architectural phenomenon distinct in their designs and the planning of their spaces, as they are the product of the phenomenon of action and reaction with a harsh environment in its climate. We chose the knadsa palace as an important archaeological source, with important information and an accumulation of data in its walls, its images and shapes were evident in the physical evidence kept in the corners of the palace, from which the researcher overlooks aspects of the life of its local inhabitant. Indifference and deliberate sabotage, That is why our study came to track the causes of the deterioration of the condition of the palace and to address this problem, we relied on the historical method by collecting all historical and geographic data, which, with their integration, give us a clear picture of the stages of development of the Baptistery Palace. The safety of the structural and decorative elements of the

knadsa palace.
KeyWords: Exploiting archaeological sites ; Preservation and restoration of archaeological heritage ; saharian Ksours ; knadsa ; Ownership archaeological buildings.

*قاضي محمد

المقدمة:

تبدو القصور الصحراوية في شكلها الخارجي ظاهرة معمارية متميزة، تعبر عن التنوع المعماري الموجود في مختلف أقاليمها الجغرافية، باعتباره فن أصيل ناتج عن فكر أبدع الساكن المحلي في نسج تفاصيله مستجيبا لتأثيرات العوامل الطبيعية إذ نلمس معالمه في نمط معماري متوج بتفاصيل زخرفية تعبر عن الحياة الفكرية لصاحب هذا الفن، ومعبرا عن حاجة اجتماعية، فكانت لقساوة البيئة التي وجدت فيها اللمسة الواضحة في تفرد تصاميمها، و تخطيط الفضاءات داخل المباني، و كذا توزيع المنازل في الشوارع أو أزقة القصر، الخاضع بدوره لسلطة العرف داخل القصر المستوحى من الضوابط الصارمة التي كانت مفروضة من لدن سكانه كنتاج لثقافة محلية تجسدت مخرجاتها في جملة من العادات والتقاليد ليشكل نسيج عمراني متكامل ومتداخل يجعله يتميز بالخصوصية، التي تجعل منه أحد أهم المعالم الأثرية والتاريخية التي تصنع التميز بالنسبة للجزائر في القصور الصحراوية، وخاصة تلك المشيدة في منطقة الساورة، والتي تعد إرثا قيما وجب الحفاظ عليه، لما له من أهمية كبيرة فهي تختزن بحق الزمن لتحفظ للأجيال رسالة انسانية تتجلى في طبيعة الفكر المحلي، فتصميمها لك يكن عشوائيا بل روعي فيه الكثير من المبادئ الأساسية للتنشئة الاجتماعية لسكان القصور الصحراوية، كما أنها مصادر أثرية مهمة يطل منها الباحث على جوانب من تفاصيل وخصوصيات القصور الصحراوية، التي من شأنها أن تساهم في تكوين صورة تحاكي الحقيقة لطبيعة المجتمع الصحراوي، ، لكن بمرور الوقت وببروز متغيرات اجتماعية واقتصادية جديدة أصبحت عمارة القصور تواجه مجموعة من مظاهر التلف، التي تكاد أن تحولها إلى ركام طيني، ويبقى العامل البشري يصنف ضمن الأسباب المباشرة الذي تتنوع طبيعة تأثيره على سيرورة القصور الصحراوية سواء في صورتها النمطية أومن حيث سلامة عناصرها الإنشائية، ولحصر حدود هذه الظاهرة اخترنا قصر القنادسة كعينة لهذه الدراسة، وعليه تم إثارة الإشكالية الأتية: كيف يمكن لسكان القصور أن يشكلون عائقا لتجسيد مشاريع حماية هذا الموروث المعماري غير المتجدد؟ وللإجابة على هذه الإشكالية عمدنا إلى وصف القصر بأهم وحداته وعناصره المعمارية، هذا لفهم الأثار السلبية الناتجة عن ملكية الخواص لدور القصر، ودورها في عرقلة مشاريع الحفظ، وعلى ضوء الإشكالية المطروحة نطمح إلى بلوغ توافق إيجابي أو بالأحرى تحقيق مقاربة إبقاء الساكنة المحلية داخل القصر،مع ضرورة ضمان استمرارية وديمومة قصر القنادسة بعناصره الإنشائية والزخرفية، ولبلوغ هذه الغاية اتبعنا في المقام الأول المنهج التاريخي الذي حاولنا من خلاله التذكير بالأهمية التاريخية لقصر القنادسة وأهم المحطات التطورية التي تركت بصمتها المادية داخل القصر، أما في الشق الميداني فقد اعتمدنا المنهج التحليلي من خلال التطرق لأهم المشاكل التي يعاني منها القصر بتشخيص مظاهر التلف الناتجة عن الاستغلال السيئ لدور القصر من طرف ساكنيه، وفي الأخير حاولنا طرح جملة من الحلول التي من شأنها أن تساهم في بلوغ المقاربة المرجوة من هذا البحث العلمي.

1. لمحة عن مدينة القنادسة:

1.1. الموقع الجغرافي:

تقع دائرة القنادسة في ولاية بشار على بعد 18 كلم ضمن الاقليم الغربي من الصحراء الجزائرية، يحدها من الشمال قصور الشمال بوكايس، لحمر وموغل، ومن الجنوب تاغيت والعبادلة، ومن الشرق مدينة بشار، أما من الغرب نجد المريجة وحدود المملكة المغربية.

2.1. التطور التاريخي للقصر:

تشتهر هذه المدينة الهادئة بإرث معماري متميز، يتصدره قصر القنادسة العتيق، الذي يعد من أهم المنشأة التاريخية والأثرية التي تزين هذه المنطقة الصحراوية، كما يعد هذا القصر من أهم الأقطاب العلمية في المنطقة، فللعلم وأهله نصيب وافر بين أحياء قصر القنادسة، إذ تعد الزاوية القندوسية الزيانية مركزا إشعاعيا علميا متميزا يجذب إليه العلماء والباحثين عن العلم، كما أن قصر القنادسة يستقطب العديد من الزوار من كل أنحاء الوطن، لما يتوفر عليه هذا المعلم الأثري من مؤهلات سياحية، ويبقى هذا الصرح الأثري التاريخي معلما شاهدا على رقي وأصالة حضارات تعاقبت على المنطقة، والتي لا تزال تحظى بطابعها المحلي التقليدي، حيث تؤكد الشواهد المادية والمصادر الكتابية أن لمنطقة القنادسة تاريخ عريق تعود جذوره إلى عصور قديمة، فقد تم الكشف عن مجموعة معتبرة من القبور التي تعود إلى فترات ما قبل التاريخ، والتي تعرف تقنيا بقبور "تيميلوس" (Timulus) وهي موجودة في منطقة جرف التربة (فاضل لخضر،2012،ص201). ، كما أن الرسوم الصخرية هي شاهد أخر على أن المنطقة كان يوجد فيها نشاط إنساني في فترة ما قبل التاريخ، إلا ان تاريخ وضع أسس قصر القنادسة كان في فترة متأخرة نسبة لفترات ما قبل التاريخ.

وإذ اختلفت الروايات والكتابات التي تؤرخ للزمان الفعلي لتأسيس القصر، فقد نجد العديد من التناقض فيما وصلنا من معلومات، وتقيدا بالمبدأ الأساسي في منهجية علم الأثار والتي تعتمد على دراسة المقارنة، وعلى ضوء هذا المنهج العلمي سوف نطرح بعض الروايات التي وردت فيها معلومات حول تأسيس القصر، أولى هذه الفرضيات التي يتم تداولها عند الساكنة المحلية لمدينة القنادسة، هي قصة هجرة الجد مسعود بن مبارك(Massoud ben Mbarek) وهو أحد أجداد الشيخ محمد بن زيان (Mohamed ben Ziane)، حيث ورد في أحد المخطوطات ما يأتي تباعا من معلومات: "هاجر سيدي مسعود من بلده مراكش، حيث كان يقيم بها فخرج من بلده رفقة عبده أسعادة الصالح إلى أن وصلا بلاد بشار فنزل بقصر زقور فاستوطن مسعود القصر بعد أن رحب به أهلها، ولما علموا من صلاحه وشرف نسبه، زوجوه امرأة صالحة منهم أنجبت له ولدا سماه عثمان (Othman)، واضطر للهجرة لظروف خاصة متجها نحو القنادسة، فاخذ قسطا من الراحة بها مع قبيلته حتى سمع مناديا ينادي عمار عمار، فقال لهم هنا نعمر فانشأ القنادسة"، وقيل أنه بنى مسجد متواضع شكله نصف دائري من الحجارة يجتمع فيه النفر القليل الذي كان معه، وبقوا هناك أي بنوه (القادري محمد بن الطيب ،1986،ص123).

في حين تخلص الفرضية الثانية إلى أن أول استقرار بهذه المنطقة تزامن مع سقوط إمارة المرابطين على يد الموحدين 1130 م/1269 م، أين لجأت خمس عائلات مرابطيه جريا وراء السلم والاستقرار فسكنت هذه المنطقة.

على خلاف هذين التوجهين تذهب بنا بعض الأطروحات أن القصر شيد على مرحلتين مهمتين، أما الأولى التي تعود إلى القرن 4هـ أين ازدهر هذا الصرح بوجود الولي الصالح سيد الحاج بن احمد(Elhaj ben Ahmed)، ثم توسع وانتعشت مظاهر الحياة الاجتماعية والفكرية بمجيئ الشيخ أمحمد بن عبد الرحمان ابن أبي زيان صاحب الطريقة الزيانية خلال القرن 11 هجري (عقاب ،2007،ص 24) أين شهد القصر عدة تغيرات، فبعدما كان هذا الأخير عبارة عن قصبة صغيرة تضم بعض البيوت التقليدية البسيطة، شهد مرحلة جديدة اتسمت بتكثيف المباني، كما عرف القصر تغييرات على النظام الذي كانت تسير عليه القصبة، فبعد عودة ابن أبي زيان من رحلته العلمية التي قادته إلى مدن المشرق العربي، وبعد ان استقر به المقام بالمغرب الأقصى لمدة من الزمن رجع من جديد للقنادسة، حيث يقال عن عودته أنها تعد نور على مدينة القنادسة، فبعدما كانت فقيرة أصبحت غنية وارتوت بعدما كانت تعاني من العطش، وهذا إن دل فإنما يدل على أن هوية القصر نابعة من تأسيس الزاوية الزيانية سنة 1098 هـ- 1686 م.

2. دراسة معمارية للقصر:

يعد قصر القنادسة تحفة معمارية تشهد لتفوق سكانها في نسج معالم هذه العمارة وحسن تقسيم فضاءاتها، وما يميز قصر القنادسة هو طبيعة تركيبته الإنشائية، إذ يعد من أغنى القصور في ولاية بشار، خصوصا من حيث العناصر المعمارية التي بتكاملها أعطتنا صورة منسجمة ومتناسقة للقصر، ومن أهم المعالم التي يمكن مصادفتها في قصر القنادسة والتي تشكل رمزيته الأثرية والتاريخية نجد :

1.2. العمائر الدينية:

هي مباني تكتسي طابع القداسة، وتحظى بالولاء من طرف المجتمع، أما في شقها المعماري فهي غالبا ما تتفرد بطراز معماري خاص يؤهلها لتحوي النشاط الديني الممارس بين جدرانها، ومن أهم المنشأة الدينية الموجودة على مستوى قصر القنادسة نذكر:

❖ **المسجد العتيق:**

يعرف أيضا عند الساكنة المحلية للقصر ب"مسجد سيدي الحاج عبد الرحمان" هو الجامع الأول والأقدم في قصر القنادسة، إذ تم تشييده في حوالي 688هـ، مباشرة بعد تأسيس القصبة، يقع في الجنوب الغربي للقصبة، يحده من الجنوب الغربي أشجار النخيل، أما من الشمال الشرقي القصبة، كما يحتوي على ضريح سيد الحاج مقابل لباب القصبة القديم، جاء شكله مربع، به قبة ومئذنة، طرأت عليه حديثا بعض التغيرات، لكنه مازال يحفظ الكثير من أصالته، حيث يعد اليوم أنموذجا معماريا أصيلا لنمط البناءات الأولى التي وجدت بالقصر.

يوجد داخل المسجد باب صغير يؤدي إلى قبو في الأسفل يوجد فيه بئر لتخزين المياه، به إناء كبير من حديد لتسخين الماء طول اليوم وطول أيام السنة، وكذلك مكان للوضوء ومكان لتغسيل الموتى، ويوجد به خلوة الشيخ سيد الحاج أيضا.

❖ **مسجد سيدي محمد بن بوزيان:**

أسس هذا المسجد على يد هذا الشيخ محمد بن بوزيان مباشرة بعد عودته من المغرب واستقراره بالقنادسة خلال القرن 11هـ، يأتي تشييد هذا المسجد بعد بناء المسجد العتيق، يمتاز هذا الأخير بمنارته العالية ذات الطراز المعماري المراكشي، تعلوها قبة صغيرة تحيط بها مجموعة من الشرفات المسننة، يتضمن المسجد قاعة صلاة مقسمة لجزئيين قسم مخصص للرجال وأخر للنساء، تتوزع به عدة أضرحة من بينها ضريح الشيخ محمد ابن أبي زيان، يحوي ساحة كبيرة مؤدية إلى منزل أولاد الشيخ بن بوزيان، في جانب المسجد توجد قاعة وضوء، وخزانة زيانية تحوي جميع وثائق ومخطوطات قصر القنادسة، كما نجد بمحاذاة المسجد مدرسة لتعليم القران وتحفيظه.

❖ **الخزانة القندوسية الزيانية:**

تعد الخزانة القندوسية من أهم المعالم الدينية والعلمية التي يقصدها العلماء والزوار من شتى أنحاء الوطن وخارجه، ويعود ذلك للدور الكبير الذي أدته الخزانة القندوسية في الحفاظ على الموروث المادي والثابت الحضاري والعلمي لأغلب القصور الصحراوية ألا وهي المخطوطات، حيث مازالت الخزانة القندوسية إلى يومنا هذا تضم مجموعة كبيرة من المخطوطات المهمة في مختلف العلوم، كما يسهر القائمون على هذا المركز أو المنبر الديني والعلمي على إقامة نشاطات دينية وعلمية، وهذا للحفاظ على سيرورة نشاط الخزانة القندوسية.

1.2. العمائر المدنية:

يعد قصر القنادسة أنموذجا متفردا من حيث طبيعة السكنات وتخطيط حارات والأحياء في القصر، وقد يعود ذلك أساسا لخصوصية مناخ الجنوب الجزائري والطبيعة المحيطة به حاله في ذلك حال معظم قصور الصحراوية، حيث يمتاز تخطيط منازل قصر القنادسة بالبناء المتراص والمتلاحم، مما يجعله يشكل نسيج عمراني متكامل ومتداخل، تأخذ المرجعية القبلية الخلفية الكبيرة في توزيع المنازل في شوارع أو أزقة القصر، الخاضع بدوره لسلطة العرف داخل القصر، أما الأزقة فجاءت في مجملها منكسرة وضيقة هدفها تغليط العدو أو الغريب هذا من جهة ومن جهة ثانية كان يرجى من هذا النمط في تخطيط الدروب والأزقة الحفاظ على حرمة البيوت.

❖ **القصبة :**

جاء مفهومها في معجم لسان العرب أن القصبة هي جوف القصر، كما تعرف القصبة أنها حي عتيق يجمع بين العمارة المدنية والدينية وأحيانا العسكرية(ابن منظور، د س، ص676).

وتعرف القصبة في المدينة الإسلامية وخاصة بالمغرب العربي بنواة المدينة لأنها تبنى في وسط المدينة (رزوق ،2013 ،ص58) ، اما قصبة قصر القنادسة هي أقدم جزء من مكوناته المعمارية، إذ توجد القصبة في الجهة

الجنوبية الشرقية للجامع العتيق، وهو قسم صغير يشكل حي تسكنه مجموعة من العائلات المتقاربة فيما بينها على العموم متجانسة ومتعايشة فيما بينها، حولها نصب البدو خيامهم (محمد طيب عقاب ،2007 ،ص34) ، وهي النواة الأولى للقصر الذي يطل على واحات النخيل والحدائق الخضراء، وفي شكلها العام هي عبارة عن بنايات قديمة مرصوصة من الطين والحجارة تتخللها أزقة ودروب ضيقة، بها مسجد عتيق يضم ضريح الولي الصالح سيد الحاج بن احمد (علوي، 2018،ص25) ، ومازالت قصبة القنادسة تحافظ على أدوارها المختلفة فهي اليوم بمثابة معلم تاريخي وسياحي للمدينة.

❖ **الأحياء والدروب:**

يتفرع قصر القنادسة إلى ثلاثية التركيب البشري (عقاب ،2010، ص32) ، وهو ما جعل الهيكل العمراني للمدينة يشتمل على الوحدات الكبرى (الحارات) بكل مرافقها الإنشائية للوحدات العمرانية، والوحدات الكبرى والتي هي القصبة في الجنوب الغربي، ومعها ملحقات أخرى كالجامع العتيق، ودار الضيافة المحاذية للوحدة الثانية، التي هي وحدة (حارة الأشراف) ومعها الزاوية والمسجد، وعلى الغرب من القصر تقع وحدة السكان العاديين، بينما تقع في مواجهة الأشراف وحدة الحرفيين التي تنتهي بساحة القصر، أما الى الجنوب فتوجد وحدة اليهود.

ويلاحظ في تكوينات القصر العمرانية أنها اتصفت بالأبعاد الحضرية المنبثقة من الدين الإسلامي وتعاليمه السمح، مما رخص للمعماري أن ينشئ عدة حارات، تحوي بداخلها عدة عائلات ذات الأعصاب والفروع الخاضعة لها، تقسمها شوارع كبرى تراوحت بين الاستقامة أحيانا والانكسارات المقصودة بتعاريجها المتزنة معا بقصد ضبط حركة المؤثرات الطبيعية والبشرية في آن واحد، وكبحها في حالة الحاجة لوقفها، أما الشوارع الكبرى في قصر القنادسة فهي تعرف بالدروب، تتفرع عنها الأزقة المؤدية إلى الحارات، وتسمى الدروب (الشوارع) تتسم بتصاميم خاصة تتصف بها، مثل درب الظليمة) المظلم، كونه مغطى كله تقريبا، وهو يؤدي من المسجد الزياني (الحديث) وإلى الجامع العتيق أو إلى المقبرة، كما سميت الدروب بأسماء الوحدات العمرانية، مثل درب أولاد سيدي أحمد وهو أحد أولاد صاحب الزاوية الزيانية أو نسبة إلى الموقع الجغرافي الذي يمتاز بطبيعة خاصة (عقاب ،2010، ص65) .

❖ **المنافذ والساحات الرئيسية للقصر:**

يتضمن قصر القنادسة ثلاثة ساحات رئيسية تربط القصر بالمدينة:

الساحة المركزية وهي ساحة القصر، وساحتين تقعان على جوانب القصر وهما على التوالي ساحة عين سيدي مبارك، وساحة السوق.

أما بخصوص الطرق فيحوي القصر ثلاث طرق رئيسية تربط ساحات القصر: الأول يضم درب الدخيسة و درب الظليمة، يخترق القصر من الشرق إلى الغرب ويربط بين ساحة القصر، والمسجد العتيق، ومسجد سيدي محمد بن بوزيان، اما الطريق الثاني وهو الذي يوجد في درب السوق، وأخيرا الطريق الثالث والذي يلامس درب عين الدير.

نتيجة للفواصل التي تشكلها تقسيمات هذه الطرقات الرئيسية تنتج لدينا صورة واضحة لثلاث تجمعات سكانية هي الناحية الجنوبية للقصر، و الناحية المركزية للقصر، والناحية الشمالية للقصر (مديرية الثقافة لولاية بشار ،د س، ص03).

❖ **المساكن :**

تعد المساكن من أهم مكونات العمارة المدنية والخلية الأساسية المكونة لمختلف التجمعات العمرانية الصحراوية، إذ هي المأوى الذي يكفل للإنسان الأمن والاستقرار، وقد أكدت الشريعة الإسلامية على أهمية المساكن في حياة الإنسان، كما حرصت على حرية الفرد في اختيار منزله وصفات البناء والموارد بما يتلاءم مع متطلباته، ما يميزها هو استجابتها لمبدأ التوافق مع البيئة الحارة، ومبدأ احترام العادات والتقاليد السائدة، على احترام الكرامة والحياء .

وقد احتوى قصر القنادسة على عدة نماذج من البيوت منها :

❖ **بيوت الأشراف :**

هي بيوت يمتلكها الأثرياء، يتكون المسكن الواحد من عدة فضاءات متكاملة ومنفتحة إلى الداخل، على صحن مكشوف "الحوش أو الفناء"، يسمح بممارسة مختلف الأعمال المنزلية براحة تامة، مزين بعناصر زخرفيه راقية، كما استخدم في البناء مواد مستوردة كالخشب المغربي، يتوسط صحن هذا النوع من البيوت بئر، كما يحتوي على دعامات كبيرة وأقواس قائمة يتراوح طولها حوالي 03 أمتار ونصف(عقاب ،2010،ص 64)، كما تضم منازل الأشراف غرف مستطيلة الشكل، تتزين كل غرفة زخارف جصية، ويحتوي على مطبخ في الطابق الأرضي، ويأخذ المسكن شكل مربع، حيث بلغت مساحة الغرفة الواحدة 4/6 متر، وبه كوة صغيرة من أجل التهوية أو وضع الشموع، يحتوي بيت الطبقة الخاصة على صالة الدويرية، وتكون في الطابق الأرضي، والصالة النصرية في الطابق الأول، كما تميزت هذه البيوت بوجود باب أو ممر يربطها ببعضها البعض، كون أهلها هم في الأساس هم من عائلة الواحدة(عقاب ،2010،ص 64) .

❖ **بيوت العامة :**

عبارة عن منازل بسيطة يعود ذلك إلى دخل رب العائلة المتوسط، من ميزاته أنه ذو طابق واحد، مؤلفة من غرفتين مربعة الشكل، يوجد به صحن مكشوف صغير لا يحتوي على زخارف معمارية، على عكس بيوت الأشراف، أما تسقيف منازل العامة كان من الخشب المحلي.

❖ **بيوت العاملين:**

كانت بيوت هذه الطبقة تحتوي على غرفة واحدة، يرجع ذلك لنمط معيشة هذه الطبقة العمالية في القصر باعتبارهم عمال أجراء يقضون طول اليوم في العمل والغاية المرجوة من إنشار تلك البيوت هو للنوم فقط.

❖ **الدويرية:**

وهي غرف خصصت لاستقبال الضيوف الذين يأتون من ابعد المناطق لمقابلة الشيخ، تعد من أفخم مباني القصر ولا زال دورها. قائما إلى يومنا هذا، تتكون من غرفة مركزية محاطة بقاعتين تنفد إليها الإنارة الطبيعية والتهوية عن طريق فتحة تعرف باسم " عين الدار" Direction de culture de la wilaya de Bechar.2015.P 07)).

2.3. العمارة العسكرية:

يعد قصر القنادسة من القصور التي لا توجد فيها عمارة عسكرية، وهو مؤشر أثري هام يمكن من خلاله تكوين صورة واضحة عن الظروف التي شيد فيها قصر القنادسة والإطار العام الذي تطور فيه هذا القصر في شتى المجالات الاقتصادية والعسكرية وحتى الاجتماعية.

3. الحماية القانونية لقصر القنادسة:

نظرا للأهمية البالغة التي يكتسيها قصر القنادسة فقد تم تصنيفه ضمن التراث الوطني، وفقا للمرسوم الوزاري المؤرخ في 3 نوفمبر 1999 (مرسوم رقم 99-07، 03 نوفمبر 1999)، هذا الإجراء القانوني حاول من خلاله المشرع إضفاء حماية أكبر لهذا المعلم الأثري، وجعله تحت حماية وزارة الثقافة ممثلة في مديرية الثقافة لولاية بشار، ويعرف التصنيف في أبسط تعريفاته على أنه إحدى إجراءات الحماية النهائية للممتلكات الثقافية العقارية، والذي من خلاله يستوجب حماية الممتلك(قانون رقم 16-6،01 مارس2016)، وفي هذا الشأن تعد الممتلكات العقارية المصنفة التي يملكها الخواص قابلة للتنازل، كما أنه لا يمكن أن تنشأ أي ارتفاق عليها بدون ترخيص الوزير المكلف بالثقافة (ديوان حماية وادي ميزاب وترقيته ،2013، ص12)

4. الواقع الفعلي للقصر:

من المفارقات التي نصادفها في قرار تصنيف قصر القنادسة هي الطبيعة القانونية للقصر، حيث تعود ملكية المنشأة المعمارية للقصر القنادسة للخواص ويمكن تقسيم الطبيعة القانونية إلى صنفين الملكية الخاصة والحبوس(مديرية الثقافة لولاية بشار، 2006)، بالمقابل يؤكد المشرع الجزائري عندما تطرق لمشاريع التصنيف لإشكالية الملكية التي طرحها كضرورة يجب الفصل فيها، وأخذ جميع الاحتياطات لعدم تداخل الملكية مع سلامة التراث الأثري من جهة، وعرقلة مساعي الحفظ والتثمين من جهة ثانية، هذا الشرط لم يتوفر في مشروع قصر القنادسة، وهو ما ترتب عنه مجموعة من مظاهر التلف والتعدي وعرقلة مشاريع الحفظ، والتي يمكن حصرها في النقاط التالية:

- المظاهر السلبية الناتجة عن ملكية الخواص لمنازل قصر القنادسة:

ما نجده في قصر القنادسة هو مختلف تماما لما ورد في الجريدة الرسمية، حيث أن ملكية الخواص لدور الموجودة داخل القصر عرقلت أليات التصنيف، فمن خلال البحث الميداني تبين لنا أن النسيج العمراني لقصر القنادسة معقد جدا، ويشترك في ملكية مكوناته المعمارية مجموعة من الأطراف، حيث يتشكل قصر القنادسة من عمائر دينية هي كلها أوقاف أو حبوس تابعة لمديرية الشؤون الدينية والأوقاف ممثلة في الزاوية، أما المساكن وبعض المرافق الأخرى هي ملك للخواص، في حين تبقى الدروب والساحات العمومية، ومداخل القصر ملك للدولة تسهر مديرية الثقافة على

تسييرها، وفيما يلي إحصائيات مدعمة بدائرة نسبية لتوزيع طبيعة العمائر الموجودة داخل القصر، حيث نخلص ان قصر القنادسة يتكون من عمارة مدنية تقدر بحوالي 60% من مجموع العمائر و 40% كلها عمارة دينية، هذا الواقع نتج عنه العديد من المظاهر السلبية التي جعلت من الملكية أكبر معوقات التنمية بالنسبة للقصور الصحراوية، حيث قدرت نسبة تلف قصر القنادسة ب 68% (مديرية الثقافة لولاية بشار، 2006)، ومن المشاكل الكبيرة التي يعاني منها القصر في ظل ملكية الخواص للعديد من عناصره الإنشائية نذكر:

- الترميمات المتكررة :

شهد قصر القنادسة مشاريع ترميم متتاليه، خاصة تلك التي كانت في سنة 2013م، 2016 م و 2017، وتعود كثرة الترميمات إلى عدم قدرة المرمم من القضاء على مصدر التلف، ويعود ذلك أساسا لما يعرف عند المختصين بالترميم الجزئي "Restauration partielle "، الذي كان بالنسبة للمرمم حتمية، حيث اقتصرت أعمال الترميم على الفضاءات الخاضعة لملكية الدولة سواء منها الحبوس أو الوقف، أو حتى تلك الفضاءات التابعة لمديرية الثقافة مباشرة والتي نخصها بالذكر وهي : الدروب، دويرية الزاوية، الجامع القديم، المقبرة والضريح، أما الملكيات الخاصة فأغلبها لم تستفد من عمليات الترميم، ويعود ذلك لعدة أسباب، ولعل أهمها خوف أهالي القصر أو بالأحرى مالكي سكنات القصر من إمكانية تطبيق قانون الشفعة على المساكن المرممة، وتبعا لهذا الإشكال عارض العديد من مالكي هذه البيوت أشغال الترميم التي تشرف عليها مديرية الثقافة، وهو ما ترتب عنه حصر أعمال الترميم في مناطق دون غيرها، هذا النوع من الترميم والمعروف بالترميم الموضعي "Restauration local" لا يحقق في غالب الأحيان الأهداف المرجوة منه، كونه لا يحقق التوازن في البناية، ذلك أن الجزء المرمم قد لا يتفاعل إيجابا مع الجزء غير المرمم، هذا من جهة، ومن جهة ثانية قد يكون السكن المشغول هو عامل التلف، ويكون سببا مباشرا في فشل مشاريع الترميم، كأن يكون هناك تسرب للمياه من المساكن الخاصة إلى المساحات العمومية، وهو ما يجعلها دائمة التعرض لنفس عوامل التلف، ويصبح الترميم في هذه الحالة مجرد عملية تمديد عمر الأثر في فضاء مكاني معلوم.

- الحصول على تراخيص من البلدية لإجراء تغييرات على المساكن الخاصة داخل القصر:

يتعامل سكان قصر القنادسة مع مصالح البلدية للحصول على تراخيص البناء وإجراء التحسينات على البيوت، التي بدورها لا تتصل بالمصالح الثقافية لمنح هذه التراخيص، وحجة البلدية في هذا التصرف أن قاطني القصر يحوزون على شهادة الملكية للمساكن، وهو ما يمنحهم الحق في الحصول على هذا النوع من التراخيص، أما في الحالات النادرة التي يتم فيها إبلاغ المصالح الثقافية فيمكن حصرها في أعمال الهدم، والتي تصبح فيها البناية تشكل خطرا على سكان القصر أو على مرتاديه، هذه الوضعية غير القانونية تجعل مصالح مديرية الثقافة أمام حتمية المشاركة في توقيع محضر الهدم، كما تفتقد مديرية الثقافة في كذا ظروف ألية التدخل لحماية عناصر القصر من التعدي المتكرر نظرا لسلطة البلدية في تسيير شؤون قصر القنادسة.

- اندثار النمط المعماري الأصلي لمساكن القصر:

ساهم سكان قصر القنادسة في تشويه أصالة النمط المعماري الذي كان عليه القصر، حيث تم غلق بعض الدروب وفتحت أخرى، كما ساهم الاستغلال غير العقلاني للمساكن في تغيير ملامح البيت التقليدي، الذي يعتبر إرثا معماريا يحمل في جزئياته أبعادا اجتماعيةُ ثقافية وحتى دينية، فالمتجول في شوارع القصر يشعر باختلال كبير في الطراز الأصلي والمحلي لهذا الصرح الأثري، فقد انتشرت واجهات حديثة من الزليج بألوان متنوعة بين دروب وأزقة القصر، في حين أصبحت بعض أجزاء القصر ركام بفعل الهدم العمدي و غير العمدي كل هذه المظاهر أفقدت قصر القنادسة أصالته ورمزيته الزمنية المتمثلة في التقادم الزمني ومظاهره.

- ضياع لوحات زخرفية نادرة في القصور الصحراوية:

تعد التشكيلات الزخرفية الجصية أحد الأساليب الفنية التي تميز بها العرب عامة عن باقي شعوب العالم، والتي أبدع الفنان المسلم في استغلال مادة الجص ليجسد تشكيلات زخرفية ذات طابع نباتي وهندسي وحتى لوحات كتابية، في هذا المقام يجمع أغلب الأخصائيين تفرد قصر القنادسة من حيث ثراءه بالزخارف الجصية في مختلف العمائر المشكلة للقصر عن باقي القصور الصحراوية، هذه الزخارف ذات الأهمية البالغة في قيمتها الجمالية ومضمونها الاجتماعي والروحي أصبت عرضة لكل مظاهر التلف سواءا منها الطبيعية أو البشرية، مما قد يعجل في حال استمرار نفس الظروف في اندثار أحد أوجه الفن الزخرفي الصحراوي غير المتجدد.

- انهيار أجزاء مهمة من بنايات قصر القنادسة:

تظافرت جملة من العوامل في بلوغ قصر القنادسة مرحلة الخطر، والتي تؤدي حتما إلى اندثاره كلية، أو أجزاء مهمة منه، حيث ساهم العديد من أصحاب الدور داخل القصر في تدهور حالة هذا الأخير، إذ أحصت المعاينات الإدارية عددا كبيرا من العائلات التي كانت تقطن داخل جدران القصر وأخلت منازلها وانتقلت إلى خارج أسوار القصر، فتركت بيوتها عرضة لكل مظاهر التلف والتدمير، في حين عمدت بعض العائلات الأخرى إلى استعمال بيوتها القديمة في وظائف لا تليق بها لا من حيث معايير الحماية والحفظ ولا من حيث الأهمية التاريخية لهذا المعلم الأثري المهم فكثيرا ما نصادف بيوتا أصبحت تستعمل كإصطبلات مخصصة للماشية.

- عدم القدرة على استغلال قصر القنادسة في المجال السياحي:

شكلت خصوصية المجتمع الصحراوي المحافظ عائقا ومانعا للاستثمار السياحي، لأن استغلال العديد من المرافق السكنية والمنفعية من طرف أهالي مدينة القنادسة كان سببا مباشرا في تعطيل المشروع السياحي لهذا المعلم الأثري، والزائر لقصر القنادسة اليوم يمكن له التجوال في الدروب وزيارة بعض المنشأة الدينة دون غيرها من المنشأة المعمارية الأخرى، فهناك العديد من العائلات لا زالت تتخذ من مساكن قصر القنادسة مستقرا لها، وبالتالي أضحت هذه العائلات تشكل عائقا أمام الاستغلال السياحي للقصر نظرا لتعارض ثقافتها وحريتها الاجتماعية والدينية مع متطلبات ومستلزمات السياحة في جميع أبعادها.

تطرقنا من خلال هذه النقاط إلى بعض المظاهر السلبية التي تنجر عن ملكية الخواص لدور القصر، والتي تعرقل مشاريع حفظ واستغلال قصر القنادسة، وجب على القائمين التدخل و معالجة هذه المظاهر السلبية، وبهدف

بلوغ توافق يسمح بالمحافظة على سلامة القصر دون التعدي على حريات ساكنيه حاولنا طرح بعض الحلول العملية وهي على التوالي:

5. الحلول المقترحة:

- ✓ التركيز على الجانب التوعوي من خلال إدراك سكان القصر بالأهمية الكبيرة للمعلم الأثري الذي يتخذوه سكنا لهم، مع العمل على إقناعهم بضرورة المساهمة في تحقيق مقاربة الحفاظ على ديمومة القصر في صورته ونمطه الأصلي، هذا الهدف الذي لن يتحقق إلا بمرافقة مصالح الثقافة.
- ✓ أضحى التراث الأثري يرتبط ارتباطا وثيقا بالمجال السياحي، حيث أصبح التراث يمثل أحد أهم وسائل الجذب السياحي، وعليه وجب على القائمين على مجال التراث أن يطرحوا مجموعة من الأليات التي من شأنها أن تحقق القيمة المضافة المرجوة من ترميم القصور الصحراوية، وفي هذا الصدد وثَق لنا الميدان أن عمليات الترميم الجزئية أثبتت فشلها، ولهذا يجب إسباق مشاريع الترميم بمجموعة من الدراسات، ولعل أهمها دراسة الطرق المثلى لاستغلال قصر القنادسة بعد الترميم، لأنه لو ثبت فعلا بأن قصر القنادسة يستطيع بفضل خصوصياته الأثرية والتاريخية أن يحقق مداخيل هامة، هنا يمكن طرح فكرة استرجاع سكنات القصر للفائدة العامة، وهذا طبعا في أطر قانونية.
- ✓ تفعيل دور المؤسسات العاملة في الميدان لأن القانون الجزائري يوفر حماية قانونية كاملة لكل المواقع المصنفة، ومن بينها قصر القنادسة، إلا أن الخلل يكمن في غياب الذراع أو المؤسسة التي تحرص على تطبيق مواد وبنود إجراءات الحماية الواردة في القانون الجزائري.
- ✓ محاولة إحياء الطابع التقليدي و التراثي لقصر القنادسة من خلال تحفيز الحرفيين على استغلال بعض مرافق القصر لفتح ورشات للصناعات التقليدية، والتي من شأنها أن تساهم في إضفاء البصمة التراثية للقصر وتوفير حركة تجارية سياحية في ساحات القصر.
- ✓ في حالة استحالة استرجاع كل المساكن في القصر يمكن للقائمين على تسيير قصر القنادسة اختيار نماذج من العمائر المتميزة، والمكونة لقصر القنادسة وتسخيرها لخدمة المجال السياحي، وهو ما يعرف عند أهل الاختصاص بالنموذج الأصلي.
- ✓ تصنيف قصر القنادسة ضمن المجمعات الأثرية الخاضعة لوزارة الثقافة، مع منع البلدية والدائرة وحتى الولاية من إصدار أي نوع من التراخيص سواء كانت موجهة للبناء أو لإجراء تحسينات وتعديلات، وتبقى هذه التراخيص من صلاحيات وزارة الثقافة .
- ✓ إدراج قصر القنادسة ضمن المناطق الأثرية والوجهات السياحية التي تعمل السلطات المحلية على الترويج لها من خلال الزيارات المتتالية، وذلك بمساهمة الشريك الاجتماعي وبتأطير من المؤسسات المخول لها قانونا حماية المعالم الأثرية بالولاية.

- ✓ وضع مخطط زيارة محكم لكل معالم قصر القنادسة، وذلك بالاعتماد على اللافتات التوجيهية والكتابات الشارحة والتي تتكلم عن الأهمية التاريخية للقصر مع إبراز أهم مكوناته ودورها عبر العصور.
- ✓ القيام بعملية جرد شاملة لكل العناصر المعمارية الإنشائية، حيث يسمح الجرد بحماية الطرز المعمارية والإنشائية وحتى الزخرفية، وبما أن قصر القنادسة متوج حسب أغلب الباحثين بتشكيلات زخرفية قد لا نجدها في كل القصور الصحراوية وبحكم مظاهر التلف التي لم تستطع الجهات الوصية على حماية قصر القنادسة من إيقاف مظاهر التلف، في ظل هذه المعطيات يظهر الجرد كأداة وطريقة مثالية للحفاظ على الطراز والنمط الأصلي لعمارة وزخرفة القصر الأصلية التي تؤرخ الزمان وتحفظ وقع المكان على نفسية الفنان الذي جسد فنونه داخل ساحات قصر القنادسة.

الخاتمة:

ان ظهور القصور الصحراوية لم يكن بمحض الصدفة أو من نتاج الطبيعة، بل هي نتيجة لخبرات تقليدية ومهارات طورها سكان القصور لتهذيب صعوبة الوسط الذي شيدت فيه هذه القصور بهدف الاستمرار والبقاء، وتحقيق التطور المعيشي و تعميق مناحي الحياة الاجتماعية بتحسين المرافق السكنية وتوفير متطلبات الحياة داخل أسوار القصر مما يوفر لساكنته الحماية من العوامل الطبيعية، من خلال هذه الإطلالة التاريخية والمعمارية على قصر القنادسة تبين لنا أهمية هذا القصر في حفظ نموذج متميز عن طرز وتصاميم أصيلة تعكس أصدق صورة عن تفاعل الإنسان مع بيئته، تفنن السكان المحليون في هندسة معالمها حسب أفكارهم وثقافتهم وإمكانياتهم المادية كلها مؤهلات امتزجت بثقافة عربية إسلامية استوحت منها طرز معمارية تجسد مبادئ دينية نستشفها في مبادئ الحرمة والحياء واحترام الخصوصية في البناء، هذا الإرث المعماري المتفرد غير المتجدد وجب حمايته والحفاظ عليه في أصالته، والتي يجب أن تخضع لقوانين علمية، والثابت التقني في هذ النوع من المشاريع وكإجابة عن الإشكال المطروح وعلى ضوء المعطيات التي توفرت لدينا وخلاصة للملاحظات الميدانية التي توصلنا إليها يمكن القول بأنه لا يمكن تحقيق ازدواجية الترميم الناجح والاستغلال المربح للقصر في ظروف كتلك التي يوجد عليها قصر القنادسة، أين تكون الملكية عامل طارد للترميم والسياحة. لدى وجب على القائمين على هذا القصر إعداد برنامج تتظافر من خلاله جهود مجموعة من الأطراف من أجل حماية ما تبقى من القصر، وللقضاء على عامل التلف البشري وجب العمل بحلين لا ثالثة لهما إما إخلاء القصر من ساكنيه أو تطبيق قانون التراث الذي يتضمن ترسانة من القوانين والنصوص التي تحمي المباني الأثرية والتاريخية في حالة تكون مشغولة أو معدة للسكن، وتبقى القصور الصحراوية بحاجة إلى إهتمام أكثر من خلال فتح العديد من الورشات في شتى المجالات التي من شأنها أن تشخص أهم عوامل التلف التي تهدد سلامة هذا الإرث الحضاري والذي يعتبر صفحة من صفحاتنا التاريخية والذي من الواجب علينا إحياؤه والنهوض به والاستفادة منه واستغلاله بشكل يتوافق مع الطابع التقليدي للمنطقة. .

قائمة المراجع:

1.عقاب محمد طيب (2007). مساكن قصر القنادسة الأثرية دراسة معمارية أثرية، الجزائر، دار الحكمة.

2.ديوان حماية وادي ميزاب وترقيته (2013). النصوص القانونية المتعلقة بالتراث الثقافي الجزائري، الجزائر، منشورات وزارة الثقافة.

3.قانون رقم 16-01 (06 مارس 2016). يتضمن التعديل الدستوري، الجزائر، الجريدة الرسمية للجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية، رقم 14، المادة رقم 21.

4.القادري محمد بن الطيب (1986). نشر المثاني لأهل القرن الحادية عشر والثاني، تحقيق محمد الحاجي و أحمد توفيق، الطبعة الأولى، الرباط، مكتبة الطالب للنشر والتوزيع.

5.ابن منظور محمد بن مكرم ،(د. س) لسان العرب، لبنان، دار بيروت ،ج1، ط1.

6.مديرية الثقافة لولاية بشار (دون سنة). التراث المعماري لولاية بشار، بشار، منشورات مديرية الثقافة، ص.03

7.علوي مصطفى (2018). من ذاكرة القنادسة الفحم الحجري، الجزائر ،مؤسسة كنوز الحكمة للنشر.

8.رزوق نعيمة (2013). الشبكة المائية بالقصبة العليا بمدينة الجزائر خلال العهد العثماني، الجزائر، موقع النشر الجزائر.

9.مديرية الثقافة لولاية بشار (2006). بطاقة تقنية لقصر القنادسة، بشار، منشورات مديرية الثقافة.

10.القرار رقم 07-99 (03 نوفمبر 1999). المتضمن تصنيف الأثار والمعالم التاريخية، الجزائر، الجريدة الرسمية للجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية، العدد 87.

11. فاضل، لخضر(2012). النشاط الأثري بالجزائر عقب الاستقلال 2004/1962، مجلة عصور، وهران، مخبر البحث التاريخي، العدد 18-19.

12 .Direction de culture de la wilaya de Bechar, (2015) Rencontre nationale sur la problématique de la réhabilitation des ksour de la Saoura, Béchar